

ألبير كامو بين الاغتراب والعبث

عوذاش فتيحة
طالبة دكتوراه
جامعة الجزائر (2)

تاريخ القبول: 2018-09-17

تاريخ الإرسال: 2018-05-29

تاريخ النشر: 2018-12-02

ملخص:

إن تدهور الأخلاق والقيم في المجتمع جعلت حياة الإنسان شبه مستحيلة بسبب اللامبالاة والفوضى وانتشار العادات البالية والخرافات، فهذا الوجود في الحقيقة يطغى عليه الطابع الآلي والروتين الذي ساهم في ظهور العبث واللامعقول، وهو الذي جعل حياة الإنسان بلا معنى ولا قيمة، إضافة إلى شعور الإنسان بالوحدة والاعتراب عن عالمه، وهذا ما جعله يلجأ إلى التمرد والثورة واستعمال الفن كوسيلة للتحرر من كل القيود والأنظمة الاستبدادية التي ساهمت في نشر مبادئ اللامساواة واللامعالية واستغلال الضعفاء لتحقيق مصالح الطبقة البرجوازية التي تسيطر على كل شيء وعلي. ومنه فكرة اللمعقول في الفكر الوجودي قد كشفت للبشرية واقع آخر من الحياة جعلته يبحث عن طرق للتكيف معه ومعايشته التي تتطلب الوعي، والإرادة والحرية لتحقيق الاستمرار والسعادة والأمن.

الكلمات المفتاحية: العبث، اللمعقول، التمرد، الثورة، الاعتراب، الوجود.

Abstract:

The deterioration of morals and values in society has made human life almost impossible because of the indifference and chaos and the spread of obsolete customs and myths, this presence is in fact overshadowed by the automation and routine that contributed to the emergence of absurd and absurd, which made human life without meaning and value, And the use of art as a means of liberation from all the tyrannical restrictions and regimes that contributed to the dissemination of the principles of inequality and injustice and the exploitation of the weak to achieve the interests of the bourgeois class, which controls everything and Ali. The irrational in existential thought has revealed to humanity a different reality of life that has made it look for ways to adapt to it and to live it requires awareness, will and freedom to investigate continuity, happiness and security.

Key words: absurdity, irrationality, rebellion, revolution, alienation, existence, tragedy

مقدمة:

يعد الدمار الشامل الذي أصاب البشرية بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، تعبيراً عن الكارثة التي لحقت بالإنسان الحديث، هذا الإنسان الذي تكاد تدمره صنائعه وأعماله الفكرية والعلمية والتكنولوجية بالأخص بعد صنعه للسلاح النووي والكيميائي، وهذه الإنسانية اليوم تشهد بنفسها على نتائج أعمالها وأفكارها التي استخدمتها بطريقة سلبية لتدمير ذاتها ووجودها، وقد خلق هذا العمل شعوراً بالقلق والضياع والاعتراب، ولا زال يحاصر الإنسان المعاصر حتى يومنا هذا.

لقد اتسم هذا الوجود بالعبث واللامعقول واللامبالاة نتيجة تراجع القيم الأخلاقية وانحطاطها وانتشار الفوضى في المجتمع، حيث انحلت روابط التآزر والأخوة والتضامن والتعاون من غير أن تحل مكانها روابط إنسانية جديدة تدعو إلى السلام والوئام، وحلت مكانها روابط العنف والاستغلال والحرمان والعداوة والحقْد حتى بدا العالم كأنه أسلم نفسه للجنون، كل هذه التناقضات كادت أن تبلغ عتبة انفصام الإنسان مع نفسه وخضوعه إلى الانفعالات اللاشعورية التي ساهمت بدورها في خلق الشعور بالإحباط والاغتراب وفقدان الثقة والأمل في مستقبل جديد، الوضع الذي جعله يعيش في حالة خوف وقلق وحيرة من وجوده.

هذا الواقع دفع الفلاسفة والمفكرين إلى البحث في وجود الإنسان وأسباب معاناته ومأساته، والهدف من ذلك هو محاولة التخفيف من الألم والتدديد بالعنف ومحاربة كل أشكال العبودية والاستغلال، فظهرت فلسفات ومذاهب حاولت دراسة الوضع من أجل إعطاء معنى للحياة بعدما سلب منها، ومن بين هذه الفلسفات الفلسفة الوجودية التي اهتمت بوجود الإنسان وذاته وحرية في اختيار أفعاله، وقد ظهرت بقوة على الساحة الفكرية بعد نشوب الحرب العالمية الثانية وكان هدفها النظر في سبب معاناة الإنسان بعد الحرب وعجزه على التعايش مع الواقع. وفي هذا السياق ظهرت إشكالية اللامعقول والعبث في الوجود الإنساني، هذه الإشكالية كانت محل دراسة وبحث من طرف الفلاسفة والمفكرين عامة والفلاسفة الوجوديين خاصة على رأسهم ألبير كامو الذي حاول تبرير العبث وسبل الخروج منه وعليه السؤال المطروح: كيف فسر ألبير كامو الوجود العبثي؟ وماهي الاستراتيجيات المعتمدة في نظره للخروج منه؟

1- كامو والوجود العبثي:

إن تأزم الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والنفسية بعد الحرب العالمية الثانية جعلت الحياة البشرية في تدهور مستمر وهذا ما نتج عنه أزمة اغتراب، خلقت في نفسية الإنسان فراغا أفقده الثقة بنفسه وإمكانية النجاح، ولهذا أصبح مشروطا في سلوكه الجسدي والعقلي، وضاعت فيه قدرة التمييز بين ما هو زائف وما هو حقيقي، وقد ساعدت وسائل الإعلام المتقدمة إلى حد كبير على تزييف الوعي، فأصبح الأفراد في ظل المجتمع الصناعي المتقدم لا يستطيعون أن يتصوروا عالما كاملا أو عملا مختلفا نوعيا عن العمل القائم، ذلك لأن مجتمعهم نجح في تكيف مخيلتهم وفقا لما يشتهي هو⁽¹⁾، لهذا نلاحظ أن الإنسان في ظل هذه السيطرة لم يستطيع أن يصل إلى تحقيق أهدافه لأنه لا يملك الحرية في ذلك، فهو يفضل الاغتراب ليتجنب الصراع مع المجتمع بصفة خاصة ومع الوجود بصفة عامة.

كما أن هروب الإنسان من ممارسة الحرية الحقة واكتساب ذات زائفة وممارسة حرية وهمية وممارسة حب زائف، ساهم في تشيئه. وبهذا التشييء ينفصل عن ذاته وعن الآخرين ويستحيل إلى إنسان مغترب⁽²⁾، معناه أن الإنسان إذا فقد حريته في ممارسة نشاطاته والإبداع في انجاز أعماله بإرادته الواعية فانه بالضرورة يتحول إلى أداة في يد مستعمليه، لأن حريته وسعيه لتحقيق ذاته تعترضها مقاومة، لهذا يصل في بعض الأحيان إلى الشعور بالإحباط والاعتراف باليأس والاغتراب. وفقدان الإنسان للسعادة كان نتيجة لاشتداد القلق والخوف والتوتر النفسي وانتشار الأمراض النفسية، ويعتبر كل هذا الثمن الذي يدفعه البشر لقاء انجازات الحضارة المادية⁽³⁾. معنى ذلك أن التطور المادي ساهم في اغتراب الإنسان عن نفسه وعن المجتمع.

كما أن لجوء الحضارة إلى الصراع المسلح لحسم المسائل التاريخية لا يسهل على الناس طريقهم إلى السعادة، بل إنها تسلك طريقا معاكسا بخدعة تكمن في قمع عدوانية أبناء فريق

حضاري معين بتحويل هذه العدوانية ضد أعضاء فريق آخر، وتسمح الدولة المحاربة لنفسها كل الأعمال الجائرة وبكل أعمال العنف وهي لا تلجا إلي الحيل المقبولة لمواجهة العدو، فحسب بل إلي الكذب الواعي والمتعمد أيضا (4).

ولهذا فمأساة الإنسان تتحول إلي عبثية الحياة. ومأساة عبثية الوجود تظهر لا لأن الإنسان يواجه الموت فقط، بل لأنه كذلك في وسط التشوش واللامعقول، وهو يدرك عبثية هذا الموقف، ولا يستطيع الوصول إلي النفاذ القادر علي إخراجة من هذا الوضع المخالف للعقل. والإنسان لا يأمل في تغيير عبثية وجوده. ولذا يحصل علي حرية حق التمرد علي مبادئ الأخلاق (5).

إنّ الإنسان في صراع دائم لمواجهة الوجود العبثي من أجل تحقيق الاستمرار، ويعتبر كامو من الفلاسفة الذين ساهموا بكتاباتهم الفلسفية في تبرير العبث واللامعقول في الوجود البشري، حيث أن هذا الأخير قد عاش طفولته وشبابه في المعاناة والفقر والمرضي، إذ يقول: "اعرف أن منشئي يكمن في الظهر والوجه، في هذا العالم من الفقر والضياء الذي عشت فيه طويلا، وحيث الذكرى لا تزال تحفظني من الخطرين المتناقضين من كل فنّان" (6)، فالفقر والمرضي هما العاملان اللذان ساهما في تكوين الشعور بالاغتراب عند كامو حيث قضى أغلب حياته يعيش حالة وعي بالموت، ولعل المرض الذي أصابه مبكرا -مرض السل-، كان السبب المباشر في إيقاظ شعوره بذلك (7)، حيث قضى شبابه يصارع الموت وهذا من أسباب الاغتراب عنده. كما حاول كامو بفلسفته أن يجيب عن عدة أسئلة شغلت فكره منها ما ذكره في أسطورة سيزيف في قوله: "فما هو إذن ذلك الشعور الذي لا يوصف، والذي يحرم الذهن من النوم الضروري للعيش؟" هل هناك منطق عند مرحلة الموت؟ (8).

هذه الأسئلة وغيرها دفعته إلي البحث عن حقيقة الوجود والحياة والهدف منهما، وكيف يستطيع الإنسان أن يتكيف مع هذا العالم ويفرض ذاته. فيقول كامو: "الإنسان الذي يكون مدركا للاجديوي يرتبط بها إلي الأبد" (9)، ومعني ذلك أن الإنسان إذا شعر أن حياته هي داخل حيز اللامعقول وأدرك ذلك بعقله، فإنه لا يستطيع التخلص منه، لأن اللاجديوي قد ارتبطت به إلي الأبد، ومهما حاول التخلص والفرار من هذا الشعور العبثي، فإنه لا يستطيع لأنه عاجز عن بلوغ ذلك، ومنه فحياته في هذا العالم لا تخلو من اللامبالاة والاغتراب الذي فرضته ظروف مختلفة وقاهرة خارج عن إراداته، لكن الإنسان وقد شعر في لحظات حياته أن كل ما في الوجود غير معقول ويحاول التخلص أو الفرار منه.

إن العبث يتولد من صراع القائم بين الإنسان والعالم أي بين رغبته في العيش في طمأنينة وسعادة وحرية، وبين عدم استجابة العالم لهذا النداء. وهذا ما نستخلصه من حياة كامو نفسه أي من حياته التعيسة انطلاقا من وجوده الشخصي، حيث عانى الفقر والمرضي، والضياع في هذا العالم، وكان مصرعه أو موته خير دليل علي ذلك. لقد كان مصيره خير مصداق لمذهبه في الوجود؟ حيث قتل في حادث سيارة علي الطريق الأهلي عائدا إلي باريس بعد عطلة رأس السنة في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والخمسين في اليوم الرابع من شهر يناير سنة 1960. (10)

كلمة العبث كما يقول "سارتر": "تولد الآن تحت قلبي، صحيح أنني لم أجدها حين كنت في الحديقة، ولكنني مع ذلك ابحت عنها، فلم تكن لي حاجة إليها: كنت أفكر بلا كلام عن الأشياء مع الأشياء، لم تكن العبثية فكرة في رأسي، ولا لها صوت، وإنما كانت هذه الحياة الطويلة الميتة عند قدمي، هذه الحية الخشبية، حية أو ظفر أو جذر أو مخلب نسر، كل هذا علي السواء...إني وجدت مفتاح الكينونة، مفتاح غثياناتي، مفتاح حياتي نفسه" (11). فسارتر كشف العبث أو الغثيان من الواقع

أو من الوجود، أي من خلال احتكاكه مع الحياة وممارسة حريته، فالعبث موجود في الإنسان، وهو من يخلقه وهذا بسبب اللامبالاة وعدم إعطاء المعنى للحياة، ويضيف "سارتر" أن "الغثيان ليس في: فانا أحسه هناك علي الجدار، علي الرافعتين، حولي في كل مكان، فليس هو والمقهى إلا شيئاً واحداً"⁽¹²⁾.

ومنه فالغثيان هو الشعور الطبيعي الذي يظهر لأي شخص ويواجه التشويش المتدفق للزج، الغامض الذي يكون عالم المظهر المحسوس القلق هو الشعور الطبيعي الذي ينتج في مواجهة الانفتاح لمستقبلنا إنه العدم في مركز ما نعيش فيه⁽¹³⁾. أي أن العبث موجود فينا وهو ناتج عن الروتين والآلية في أعمالنا اليومية وهو ما خلق فينا الشعور بالملل والقلق والنفور من الحياة التي فقدت معناها، خاصة بعد الحروب العالمية.

هذه هي حالة الإنسان المعاصر الذي يتخبط ويتألم من جراء الأوضاع التي يعيشها والتي يحاول مقاومتها والتصدي لها حتى يصل إلي هدفه، وهو ما لا يتم إلا إذا حاول فك القيود التي ربطها علي نفسه بالتحدي والإصرار والرغبة في ذلك، لأنه إذا لم تكن له هذه الجرأة فانه يبقى عبداً للأشياء التي صنعها بفكره وبإرادته. فالاستسلام والانتظار هو وجه من أوجه العبث، لأنه يجعل الإنسان يعيش في حلقة مفرغة، ولا يدرك ما يحمله الغد، لأنه قيد حياته بالأمل الذي يجعله أسيراً لشخصيته، وبالتالي يصبح مقهوراً لأنه لم يحقق هدفه الذي عمل من أجله والمتمثل في تحقيق ذاته بكل حرية دون قيد أو ضغوطات من الآخرين، أي دون التعرض إلي القهر والهدر اللذان يشتركان في تفاقم المأزق المتراكم بحيث يصبح الوجود غير قابل للاحتمال والمواجهة، وهو ما يؤدي إلي بروز كل آليات الدفاع السلبية التي وان حملت توازناً بدلاً من نوع ما يجعل الحياة قابلة للاحتمال، إلا أنها تتركس الهدر والقهر وتعيد إنتاجهما من خلال تعطيل طاقات المجابهة والتغير والنماء والانطلاق، وبذلك يدخل الإنسان المهدور في حلقة مفرغة: يهرب من هدره وقهره كي يقع في عتالة المشروع الوجودي من خلال تبديد الطاقات الحيوية في خدمة الدفاعات التي توفر توازناً مرضياً. في الحالتين نحن بصدد كارثة وجودية من هدر كيان لا بد من الوعي بديناميتها وألعابها البائسة المدمرة، خارجياً أو ذاتياً علي الأقل، بانتظار توفر ظروف المجابهة الخارجية. وهنا يلعب كل من التفكير الإيجابي وتنشيطه عن قصد ووعي والعواطف الإيجابية وتنميتها، والارتباط بقضايا كبرى دور فتح أفاق التحرر من الهجر والقهر.⁽¹⁴⁾

يفهم من ذلك أن الإنسان عليه أن يواجه الوجود العبثي ويتكيف معه، وهو ما لا يتحقق إلا باستعمال الوعي والتحرر والتفكير الإيجابي بأنه وسيلة من وسائل القضاء علي عبثية الوجود والتحرر منه وإلا بقي أسيراً لحقائقه الغامضة في هذا السياق يقول كامو: "هنالك حقيقة واضحة تلوح أخلاقية تماماً، وهي إن الإنسان دائماً ضحية حقائقه، فإنه حين يقربها لا يستطيع أن يحرر نفسه منها، وعلي المرء أن يدفع شيئاً، والإنسان الذي يكون مدركاً للجدوى يرتبط بها إلي الأبد، والإنسان الخالي من الأمل الذي يدرك أنه كذلك لا يعود يمد للمستقبل بصلة وهذا طبيعي، ولكن من الطبيعي أيضاً أن يكافح ليتخلص من لا معقولية الكون. وليس لما ذكرته مغزى إلا بموجب هذا التعارض، ولقد أقر البعض بالجو اللامجدي مبتدئين بنقد المعقولية وليس هناك شيء أدل هنا من تفحص الطريقة التي توصلوا بها إلي نتائجهم."⁽¹⁵⁾

ومنه فالحياة في الوجود العبثي ما هي إلا تمضية للوقت وتسلية لقتل الروتين والملل ومهما بلغ الإنسان درجة المعرفة والعلم إلا أنه يبقى يعيش في العبث واللاجدوي، لأن الفطرة التي فطر عليها تجعله يحمل في ذاته بذور العادة والروتين، ولا يوجد إنسان تخلو حياته منها، فكل الناس يعيشون

في الرتبة والكآبة والعادة والقلق والأمل، والخوف من الموت وهذا التفكير في حد ذاته هو الذي يبعث في نفسيته مثل هذا الشعور بل أكثر من ذلك الشعور بالاغتراب. وعندما يدرك الإنسان أن حياته ليس لها قيمة ولا أمل في عيشها في هذا الوجود العبثي يلجأ إلى البحث عن طريق آخر للهروب من هذه اللامعقولة السائدة في العالم وبجد التمرد والثورة والفن والتضامن هو الحل المناسب لتخفيف عن النفس والتخلص من اللامبالاة والاكتئاب وكل المشاعر التي تعكر مزاجه.

2- الخروج من اللامعقول: يكون الخروج من اللامعقول بواسطة طرق هي:

أ- التمرد والثورة:

للخروج من العبث واللامعقول في نظر كامو لابد من ممارسة التمرد الذي هو وسيلة يلجأ إليها الإنسان لرفض الواقع اللامعقول الذي اكتشفه بوعيه ورفض الاستسلام له بالانتحار، وعندما قرر أن يواجهه، فهذا التمرد في الحقيقة هو تمرد علي عبثية الحياة التي لا طائل من وجودها وقد لا سبيل لفهمه، وبذلك فإن كامو يحاول أن يظهر الوجه الفائق لإنسانية الإنسان الذي يصوره العمل والمجازفة بأسلوبه الخاص عن الوجه الأساسي للحياة، ذلك الوجه الذي يكشف عنه من ناحيته في العودة إلى الحرية الانعتاق والنضال⁽¹⁶⁾.

فالانتحار هو التمرد والرفض باعتبار أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في تناقض مع العالم ومع نفسه، ولهذا فهو يعد المطالبة بنوع من الشفافية، كما يعني وضع العالم موضع السؤال في كل لحظة من لحظاته، ولما كان التمرد هو مواجهة اللامعقول فإن الوعي منصب عليه كلية⁽¹⁷⁾.

فالتمرد هو وسيلة للتحرر من كل القيود والعادات والتقاليد البالية التي تسيطر على عقل الإنسان وتقيده، حيث يقول كامو: "إن حركة التمرد ليست في جوهرها حركة أنانية قد يكون لديها ولا شك مقاصد إلى ذلك، إن المتمرد اعتبارا من هذه المقاصد وفي توثبه الصميمي لا يصون شيئا، لأنه يغامر بكل شيء، لا جرم انه يطالب بالاحترام من اجل ذاته، ولكنه بمقدار ما يتوحد ذاتيا مع جماعة طبيعية"⁽¹⁸⁾، فالمتمرد الذي يرفض الحياة التي يعيشها والتي فيها جميع ألوان الاضطهاد يحاول من خلال ذلك أن يجعل لها معني وغاية وقيمة وان يحقق ذاته كإنسان.

"والمتمرد إنسان يقول لا ونعم، فإنه لا يتخلى هو أيضا إنسان يقول نعم منذ أول بادرة تصدر عنه، إن العبد ألف تلقي الأوامر طلية حياته يري فجأة أن الأمر الجديد الصادر إليه غير مقبول، فما هو فحوى هذه؟- أنها تعني مثلا (أن الأمور استمرت أكثر مما يجب) وأنها مقبولة حتى هذا الحد، ومرفوضة فيما بعده، وانك غاليت في تصرفك، وتعني أيضا حدا يجب أن لا تتخطاه"⁽¹⁹⁾. معنى هذا أن الإنسان هو ذلك الشخص الذي يقول "لا" و"نعم"، أي هو ذلك الذي يتلقى الأوامر من سيده ويرفض الامتثال لها، حيث جاء اليوم الذي يتقلب عليه الأمر ويتمرد علي طاعته واحترامه، لأنه ربما أدرك أن حريته قد سلبت منه وأنه لا يستطيع أن يفعل ما يشاء، وعليه فانه يلجأ إلى محاولة وضع حد لهذه الحياة اللامعقولة بالتمرد والثورة، أي برفضها واللجوء إلى حياة أفضل يحقق فيها عزة النفس والكرامة.

فالإنسان إذا أدرك في لحظة من لحظات حياته انه مقهور وتعيش وان القدر الذي كتب عليه لا يتماشى مع طموحاته ورغباته، فانه بالضرورة يتمرد ويرفض هذا الواقع اللامعقول الذي لا يستطيع فهمه منذ البداية وهذا ما يبرره الواقع اليوم، فمعظم الشباب يعيشون حالة من الاكتئاب والقلق نتيجة غياب الظروف المعيشية البسيطة التي تمكنهم من الحياة ككل البشر، هذا الظلم واللامساواة واللاعدالة المنتشرة في المجتمعات والتي قمعت حرية أفراده نتيجة الأنظمة السائدة،

دفعتهم إلى التمرد والثورة لاسترجاع حريتهم واستقلاليتهم، فكم من شخص تمرد علي دولته ونظامها السائد وخلق القوة الاندفاعية لباقي أفراد المجتمع للتحرر من سلطة الحاكم المستبد. فالثورة كما يقول كامو: "هي تلك التي تهب الحياة قيمتها وحين تنتشر لتشمل طول الحياة كله، فإنها تهب تلك الحياة روعتها، والشخص الذي تحجب رؤيته الحجب لا يجد منظرا أبهى من منظر الإدراك الذي يعالج واقعا هو وراء حدوده، وليس هناك ما يضارع بصره الكبرياء البشري، كما أن محاولة الانتقاص منه لا تجد نفعا، والضبط الذي يفرضه الذهن علي نفسه والإرادة المستدعاة من لا شيء والصراع وجهها لوجه، كل تلك الأمور تتميز بصفات غير عادية" (20).

الثورة هي التي تعطي للحياة قيمة وقداسة وهي التي تمكن الإنسان من العيش في عالم تسوده القيم والأخلاق، وهو يقول: "الثورة هي احدي المواقف الفلسفية الوحيدة المتماسكة، إنها المواجهة الدائمة بين الإنسان وغموضه والإصرار علي شفافية ووضوح مستحيلين، وذلك الموقف بتحدي العالم من جديد في كل ثانية، وكما أتاح الخطر للإنسان الفرصة الفذة ليغتتم يقظة، فان الثورة الميتافيزيقية تجعل ذلك التيقظ يشمل التجربة كلها، وذلك هو مثول الإنسان الدائم أمام عيني نفسه، وهو ليس طموحا، لأنه خال من الأمل، إن تلك الثورة هي يقين المصير الساحق بدون الاستسلام الذي كان يجب أن يرافق ذلك اليقين" (21).

فبالثورة يستطيع الإنسان أن يتحدي الغموض واللامعقول الموجود في العالم هو ما لا يتم إلا بعد إدراكه ووعيه لعبثية الوجود ومواجهته لها، حتى يستطيع تحقيق السعادة والأمن والتخلص من اللامبالاة والظلم. فالثورة هي وسيلة للتحرر من العبودية والاستغلال وهي لا تكون أبدا نهاية في حد ذاته بل هي وسيلة لتحقيق العدالة (22).

الثورة في الحقيقة هي التي تخلق حياة جديدة بعد القتل والعنف والتدمير الذي يمارسه ضد التاريخ وهذا ما أكده عبد الغفار مكاوي في قوله: "إن المتمرّد لا يكون شيئا حتى يكون ثائرا والعكس صحيح، فالثائر الذي لا يكون في نفسه متمرّدا لا يتسنى له أن يكون ثائرا بحق، انه حين يحيد عن منبع التمرد موظفا أو رجلا من رجال البوليس، تلغي أفعاله التمرد في حقيقته ومعناه" (23)، فالثورة تهدف إلي التغير والتجديد وتحسين الظروف للقضاء علي الفوضى وخلق عالم جديد.

ب-التضامن:

لقد حاول الإنسان أن يتحرر من العبودية، ومن كل أشكال الظلم والحرمان وان يتخلص من عالم اللامعقول واللامبالاة الذي يعيش فيه، وذلك عن طريق نشر أفكار التمرد والثورة لبناء حياة تتأسس علي العدالة والمساواة، ولكنه توصل إلي أن الثورة لا تخلص البشرية من العبودية، وإنما تزيدها ظلما علي ظلم وعبودية علي عبودية وحرمان علي حرمان، لهذا دعى إلي ضرورة التضامن والتسامح لمواجهة الخطر، وليس بالثورة التي تعمل علي تحطيم وتدمير الوجود البشري، فالتضامن هو ذلك الشعور بالإخوة والإنسانية والتعاون والألفة بين الناس، إنه ينشأ عن الوعي بالشقاء المشترك، سواء أصاب مجموعة من الناس أو جميع الناس، ويظهر إلي الوجود بقدر مواجهتهم لخطر مشترك يهددهم في الكفاح المشترك ضد الخطر يتحد الناس ويخاطرون بالتضحية بكل شيء لكي ينفذوا هذا الجزء من كيانهم الذي لا يمكن أن يرد إلي فكرة مجردة (24).

فالتضامن يظهر في المواقف الصعبة والمؤلمة التي تعيشها البشرية فعلى السبيل المثال الوباء أو الطاعون الذي أصاب مدينة وهران حسب كامو جعل الناس يتضامنون فيما بينهم لمواجهة لأنه قضية إنسانية حيث يقول: "يمكن القول أن الطاعون قد أصبح قضيتنا جميعا، إلي هذا الحد ،

وبالرغم من المفاجأة والقلق الذي حملته الأحداث لهم، وان كل مواطن من مواطنينا يتابع أشغاله كما يستطيع كالمعتاد، وبلا شك كان مفروضا أن يستمر هذا ولكن بمجرد أن أغلقت الأبواب، أدرك الناس أنهم جميعا بمن فيهم الراوي نفسه قد أصبحوا متساوين، وعليهم تدبير أمرهم هكذا، مثلا أصبح الشعور الفردي كشعور الانفصال عن كائن غزيرا، فجأة منذ الأسابيع الأولى، مثل شعور شعب بكامله، وبالخوف والألم الذي يحمله زمن العزل الطويل (25).

ومنه فالتضامن شرط ضروري لمواجهة الخطر الذي ينزل علي البشرية وهذا ما لمسناه في رواية الطاعون أين تضامن جميع الناس ضد الوباء من خلال تقديم المساعدات والتعاون والاتحاد فيما بينهم. ويضيف كامو: "هذا ليس سببا كافيا هذه حكاية سخيفة، أعرف ذلك لكنها تخصنا جميعا، ينبغي أخذها كما هي، لكنني لست من هنا؟- من الأسف؟ ستكون هنا مثل الجميع. إنها قضية إنسانية. أقسم لك، ربما أنك لا تعير انتباها لما يدل عليه انفصال مثل هذا بالنسبة إلي شخصين متفاهمين جيدا" (26). معني ذلك أنه لا يمكن لأي شخص أن يتهرب من هذه القضية التي تعتبر في رأي كامو قضية إنسانية تشمل الجميع. ولهذا وجب عليهم أن يتحدوا للتخفيف من معاناة وألم المصابين بهذا الوباء.

ومنه نلاحظ أن الثورة لا تحقق للإنسانية قيمتها وإنسانيتها بل تشتت كيائها وتجعلها تعيش في الحرمان والمعاناة والشعور بالاغتراب والوحدة، أما التضامن فهو الطريق الوحيد لرجع شمل الإنسانية ومساعدتها علي مواجهة الخطر والتحرر منه، والغاية من ذلك هو كرامة الإنسان علي يد الإنسان، وضد الموت المصنوع أو القتل في العصر الحديث. وهذه الحركة الصاعدة من الأنا إلي نحن، ومن الفردية إلي التضامن بين أفراد وحيدين هي التي تميز هذا التوسع في مجال الفكر (27). فالتضامن مهم لتحقيق الاستمرار والألفة بين الناس ومحاربة الأنانية والحق.

إن التضامن الاجتماعي هو الذي سمح للأفراد بتحقيق ذواتهم من خلال علاقات الاعتراف المتبادل، غير أن هذا التضامن قد أصبح في المجتمعات الحديثة متوقفا - داخل نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية - علي وجود علاقات التقدير المتماثل بين الذات التي حققت استقلالها الذاتي، غير أن الشعور المرء بالتقدير بقية ذاته أمر يتوقف علي الآخرين أو تقدير الغير، وعندما يحصل المرء علي هذا التقدير، يستطيع تحسين صورته إلي ذاته بصورة ايجابية، لأنه يتأثر بصورة كبيرة بمواقف الآخرين (28). ومنه فالإنسان لا يستطيع أن يحرر نفسه من العبودية والاستبداد ما لم يساعده المجتمع في ذلك عن طريق التضامن والتعاون معه في تحقيق استقلاله وحرية.

ج-مواجهة العبث بالفن:

الفن هو محاولة كشف الواقع العبثي والتعرف علي أسباب لا معقوليته وسبب استحالة الحياة فيه من أجل إعادة إصلاحه وبناءه بعد تمزقه وتحطمه، حتى يستطيع الإنسان التكيف معه، فهو يحرره من معاناته ومأساته ويجعله يتطلع إلي الأفق أي إلي حياة أفضل تعمها السعادة والرفاهية. الفن عند كامو: "عدمي، يتخبط أيضا بين الشكلية والواقعية، فأما الواقعية فهي بورجوازية، مثلما هي اشتراكية. وأما الشكلية فتخص مجتمع الماضي حينما تكون تجريدا بلا مسبب، مثلما تخص المجتمع الذي يدعي من المستقبل، وإذا ذاك تعرف الدعاية، إذا تحطمت اللغة بالإنكار اللاعقلاني، تلاشت في الهذيان اللفظي، وإذا خضعت للفكر التقليدي، تلخصت من الشعارات بين هاتين الحالتين يقع الفن" (29). فالفن الذي نراه في الحضارة المعاصرة هو فن ممزق، وهو يعبر عن المجتمع الممزق، ولهذا فان الفن الحقيقي غير مسموح له بالتواجد، لأن منظومة الحضارة

الآن تعتمد علي قيم المتبادل، والذي لا يستطيع إدخاله في هذه المنظومة يبقي غير معترف به من قبل المؤسسات التي تؤثر في الواقع⁽³⁰⁾.

فظهر الفن كان نتيجة الأنظمة الاقتصادية والسياسية المتناحرة حول ملكية العالم والتحكم فيه والتي ساهمت بالدرجة الأولى في تحطيم القيم والأخلاق والمثل العليا التي كانت سائدة في المجتمع، وجعلت الإنسانية تعيش في عالم غريب، عالم الأشياء الذي غابت عنه الأخوة والتضامن والتسامح، وهذا ما جعل الفنان يتخذ من فنه باب للتمرد والثورة علي هذه الحياة المليئة بالعبث.

والتنمرّد الفني إذن يقرب الإنسان من الواقع ويجعله يتحسس بمصيره، فالإبداع والخلق في العمل الفني هما في الوقت نفسه إبداع وخلق في التمرد، ونستطيع أن اذهب إلي القول بان الفن يقرب الإنسان من الوعي الناصع بمصيره أكثر مما تصنعه الفلسفة⁽³¹⁾، فالفنان المتمرد يحاول أن يفهم الوجود العبثي من خلال فنه سواء كان نحتاً أو رسماً أو موسيقى أو شعر، أي محاول إيصال صور الوجود اللامعقول الذي يعيشه الإنسان من روتين وفوضى ولا مبالاة من خلال جملة من التمردات الفنية التي تجعل الآخرين يتحسسون بذلك، أي يولد لديهم الشعور بالواقع العبثي وكيفية الخروج منه، فالعالم يعد غريباً لا سبيل إلي تغييره، ولكنه أصبح قابلاً للتغير لا بل لإعادة خلقه من جديد، والتمرد طاقة خلاقة تعيد خلق العالم في كل لحظة من جديد كما تبدع قيما جديدة علي الدوام، عكس المحال فهو مجرد تكرار عقيم لا نهاية له ولا أمل في التخلص منه، وفي مرحلتي المحال والتمرد يبقي مطلب الإنسان للوحدة في أساسه علي ما هو عليه، ولكن لا يطلبها الآن لكي يعاني محالية العالم ويستنفذ جهده في التحدي وحده، بل لكي يشكل هذا العالم من جديد علي صورة القيمة التي اكتسبها عن طريق التمرد، ويبقي الدافع إلي طلب الوحدة في الحالتين واحد لا يتغير نعني به المحافظة علي كرامة الإنسان والإبقاء علي عزته الميثافيزيقية وليس الفن إلا شهادة التي تنطق بهذه الكرامة والعزة الإنسانية، اللتين تكتشفان في التمرد علي المصير المحال وفي الإصرار علي مواصلة الجهد العقيم⁽³²⁾، فالتمرد الفني يعمل علي إعادة الكرامة والقيمة للحياة حتى يستطيع الإنسان الاستمرار فيها و ممارسة حريته دون ضغوطات أو قيود.

فالفن بهذا المعني هو الأمل الذي يمكن من خلاله المحافظة علي استقلالية الفرد من طغيان عقل السلطة والهيمنة الذي يطبع كل الأفراد بطابعه، ويتجاوز الفن هنا مع الثقافة والدين كآخر الدفاعات التي يمكن أن يحتمي بها الإنسان ضد غزو الحياة الاستهلاكية، والتي تنذر بالقضاء علي العقل⁽³³⁾، فالفن في هذه الحالة يعطي للفنان الأمل في حياة أفضل فهو يحرره من كل القيود التي تقيد تفكيره.

إن الإنسان يتحرر حين يجد العمل الفني يمثل له أهواءه الذاتية وغرائزه فيتبدى للإنسان ما هو كائن عليه، فيعي كينونته ويتحرر... بل إن الفن حين يحول الأهواء الإنسانية من خلال تشخيصها إلي موضوعات للوعي، فإنه يجرّد العواطف والغرائز من شدتها، وتموضعها يؤدي إلي جعلها خارجية بالنسبة له، وتخرج من حالة التركيز عليها، وتعرض نفسها لحكمنا الحر⁽³⁴⁾. الفن مهم جدا في حياة الإنسان النفسية بصفة عامة والفنان بصفة خاصة لأنه يحرر من المكبوتات ويساعده علي تهذيب الغرائز والشهوات وتحقيق الرغبات.

ومنه يمكن أن نقول ما من شيء سوي العمل الفني الذي يستطيع أن يرفع الزمان، فهو وحده الذي يستطيع أن ينقل المتعة الفنية ويطبعها من جيل إلي جيل، فيضفي طابع الدوام علي ما من شأنه أن يعبر ويزول وان يهب الفنان نفسه ذلك الخلود الزائل، وهو الخلود الوحيد الممكن في هذا العالم الفاني، ويظل الفن، علي الرغم من هذا التعالي الظاهري هو المجال الوحيد الذي يستطيع

التمرد فيه أن يحرز الانتصار الكامل، الفن وحده الذي يستطيع أن يجعلنا نعيش هذه الأبدية الزائلة، هذه اللحظة التي تلتقي فيها أبعاد الزمن الثلاثة في حضور نادر وفريد وسعيد⁽³⁵⁾.

الفن يعمل علي تشخيص أمراض الحضارة وتقديم الدواء لها، لأن الفن هو قوة الاحتجاج الإنساني ضد قمع المؤسسات التي تمثل الهيمنة الاستبدادية⁽³⁶⁾. أي أن الفنان يعمل علي كشف مسببات تراجع الحضارة وانهيارها عبر كتاباته الفنية والروائية، ليساعد الإنسان علي ضرورة الاندفاع والاحتجاج على كل ما هو منافي للعقل والحرية والإرادة حتى يتخلص من العبودية والهيمنة. فالعمل الفني يقوم في جوهره علي تلك القطيعة التي يقيمها علي المبادئ التي يقوم عليها الواقع الفعلي، وخلق منطق آخر الذي يتمثل في تقنيات الشكل في العمل الفني، نواجه به منطق التسلط الذي يمارسه العقل في الحياة اليومية⁽³⁷⁾.

الفن إذن ملجأ للتححرر والاستقلالية، أكثر من ذلك فهو طاقة لمحاربة به كل أنواع الظلم والاستبداد والعنصرية، فهو مصدر توعية الإنسان وإرشاده إلي كيفية ممارسة حريته وإعادة بناء القيم الأخلاقية بالوعي والإرادة حتى يستطيع معرفة مكانته داخل المجتمع، فهو مهم جدا في حياة الإنسان النفسية بصفة عامة والفنان بصفة خاصة لأنه يحرره من الأمراض ويخفف عليه، وكما يساعده علي تهذيب الغرائز والشهوات وتحقيق الراحة النفسية ويساعده علي المحافظة علي استقلالية الفرد من طغيان عقل السلطة والهيمنة، فهو إذن ملجأ للتححرر والاستقلال من كل أشكال القهر والظلم والاستبداد. فهو مصدر توعية الإنسان وإرشاده إلي كيفية ممارسة حياته داخل الوجود العبي. وهذه التوعية لا تكون إلا بالإرادة الحرة والعلم.

خاتمة:

ليست فكرة العبث إلا تصوير لوجود الإنسان الذي يعاني من التشاؤم والمأساة والاغتراب عن نفسه وعن مجتمعه خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، فرغم التطور المادي الذي يعيشه الإنسان إلا أنه لا يزال إلى يومنا هذا يعامل من قبل الآخر معاملة الأشياء والأداة، فهذه التكنولوجيا التي أوجدها أصبحت نقمة عليه، فهو مسير لا مخير، هذا من جهة ومن جهة أخرى يحاول كامو أن يبين التناقض والتصادم الموجود في المجتمع نتيجة تراجع القيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية والتي أفرزت الحقد والأنانية وجعلت الإنسان ينسلخ عن إنسانيته ولا يبالي بمعاناة ومأساة أخيه الإنسان .

فهذا الوضع في الحقيقة هو وضع لا مفر منه خاصة بعد امتلاك القوى العظمى للسلاح النووي وانقسام العالم إلى كتلتين شرقية وأخرى غربية فهذا الانقسام والتشتت أدى بضرورة إلى شعور الإنسان بالعزلة والاغتراب والاكتئاب من عدم الاستقرار وتوفير الأمن الذي هو منبع حياة الإنسان، فهذا الواقع المؤلم الذي حاول كامو تفسيره من خلال كتاباته هذه هو في الحقيقة محاولة دعوة البشرية إلى ضرورة التنظف وإدراك هذا الواقع من أجل إيجاد الحل لذلك وإعطاء المعنى للوجود وذلك من خلال القيام بالتمرد والثورة علي جل الأنظمة الفاسدة والاستبدادية التي عرقلت حياة البشرية والتي لم تحقق للإنسانية الأمن والاستقرار والتي ساهمت في انتشار مبادئ تفقد للمساواة والعدالة وقيم غير أخلاقية وانعدام سياسة الأخوة والسلام والوئام رغم أنها جاءت من أجل تحقيق العدالة والمساواة إلا أنها لم توفق في ذلك بسبب مصالحها الخاصة التي عملت من أجل تحقيقها علي حساب مصالح الضعفاء فهي مجرد شعارات.

وعليه فاللامعقول هو تصوير للإنسان المعاصر المظهد والمستبد، الذي يحاول أن يحقق حياة أفضل تعمها الحرية والرفاهية، إلا أنه لم يستطيع بسبب تطور التكنولوجيا والصناعي الذي جعله كالشيء الذي فقد إنسانيته، فقد جرد منها، وهذا ما يؤكد الواقع اليوم أين الإنسان يقتل أخاه الإنسان بلا رحمة ولا شفقة وأعضاؤه يتجر بها في الأسواق السوداء، فهذه الفوضى والعبثية لم يفرضها الواقع إنما فرضها الإنسان بنفسه من خلال استعماله السيئ للعلم والتكنولوجيا .

ففكرة العبث هذه عند كامو لم تكن مجرد صورة خيالية أو وليدة الصدفة فهو لم يصطنعها وإنما هي وليدة احتكاكه مع مجتمعه وحياته الشخصية من خلال تأثره بالاغتراب والمرض وتراجع القيم الأخلاقية خاصة بعد انتشار الأنظمة الاستبدادية التي جعلت البشرية تعيش الألم والمعاناة، وكان هدفه الدعوة إلى ضرورة التحرر والتخلص من العبث وكل ما يعيق استمرار البشرية عن طريق التمرد والثورة والفن لأن الإنسان بطبعه محب للحياة ومتعلق بها .

ولهذا نقول أن للحياة معني وقيمة وعلي الإنسان أن يعطي لها حقها في ذلك وهذا لا يكون إلا بمحاربة كل أشكال العبودية وإعادة بناء الأخلاق وتوعية البشرية وهذا لا يتم إلا بالإرادة والوعي والعزيمة.

(1) فيصل عباس ، الاغتراب، (بيروت: دار المنهل اللبناني للنشر ، ط2008، 1) صص(251، 205).

(2) فيصل عباس، الاغتراب، ص288.

- (3) فيصل عباس، الإنسان المعاصر في التحليل النفسي الفرويدي، (بيروت، دار المنهل اللبناني للطباعة والنشر، ط2004، 1)، ص562.
- (4) فيصل عباس، الاغتراب، ص323.
- (5) فيصل عباس، الاغتراب، ص278.
- (6) -Albert camus ;l envers et l endroit;(paris:galimard;1958);p11.
- (7) -mareal melancon;Albert camus; Analyse de sa pensée;(paris;edition universitaires fribourg;suisse;librerie klincksiseck;france;1976);p78.
- (8) ألبير كامو ، أسطورة سيزيف، ترجمة: أنيس زكي حسين، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة لبنان، 1983)، ص14.
- (9) ألبير كامو المصدر نفسه، ص41.
- (10) عبد الرحمان بدوي، دراسات في الفلسفة الوجودية(بيروت: المؤسسة العربية للنشر ، ط1980، 1)، ص200.
- (11) جون بول سارتر، الغثيان، ترجمة سهيل ادريس، ص ص(881-880).
- (12) جون بول سارتر، المرجع السابق، ص30.
- (13) محمد شفيق شيا، في الأدب الفلسفي، (بيروت: ط1980، 1)، ص ص(81-80).
- (14) مصطفى حجازي، الإنسان المهدور، (دار البيضاء المغرب: المركز الثقافي العربي ، للنشر، ط2005، 1)، ص16.
- (15) ألبير كامو، أسطورة سيزيف، ص ص(41-40).
- (16) رجر البيرس، الاتجاهات الأدبية الحديثة، ترجمة: جورج طراييشي ،(دون مكان :منشورات عويدات ، 1965)، ص91.
- (17) محمد يحياتن ، مفهوم التمرد عند البير كامو وموقفه من الثورة الجزائرية(بن عكنون: ديوان المطبوعات الجامعية ،ساحة المركزية الجزائرية، 1984)، ص48.
- (18) ألبير كامو، الإنسان المتمرد، ترجمة: نهاد رضا ،(بيروت: منشورات عويدات ، ط1، 1973)، ص115.
- (19) ألبير كامو، الإنسان المتمرد، ص18.
- (20) البير كامو، أسطورة سيزيف، ص64.
- (21) البير كامو، الإنسان المتمرد، ص64.
- (22) ديفيد زين ميروفتيش، أقدم لك البير كامو- ص141.
- (23) عبد الغفار مكاوي، البير كامو، محاولة لدراسة فكره الفلسفي، (بيروت: منشورات عويدات ، دار مكتبة الحياة)، ص ص(121-122).
- (24) عبد الغفار مكاوي، ألبير كامو،م محاولة لدراسة فكره الفلسفي، ص162.
- (25) ألبير كامو، الطاعون، ترجمة مزيان، (بجاية: دار تالنتيقت للنشر والتوزيع، 2014)، ص71.
- (26) ألبير كامو، المصدر نفسه، ص90.
- (27) عبد الغفار مكاوي، البير كامو، محاولة لدراسة فكره الفلسفي، ص150.
- (28) كمال بومنيير، اكسل هونيث فيلسوف الاعتراف، (بيروت: منتدى المعارف، ط2015، 1)، ص ص(60-59).
- (29) البير كامو، الإنسان المتمرد، ص339.
- (30) رمضان سطوسي محمد، علم الجمال، (القاهرة، مطبوعات نصوص 90، ط1993، 1)، ص ص(76-75).
- (31) جون بول سارتر، الغثيان، ص ص(881-880).
- (32) عبد الغفار مكاوي، البير كامو محاولة لدراسة فكره الفلسفي، ص ص(149-150).
- (33) جون بول سارتر، الغثيان، ص30.
- (34) رمضان بسطوسي محمد، علم الجمال، ص78.
- (35) عبد الغفار مكاوي، البير كامو محاولة لدراسة فكره الفلسفي، ص152.
- (36) رمضان بسطوسي محمد، علم الجمال، ص76.
- (37) رمضان بسطوسي محمد، المرجع نفسه، ص87.